صور من الحياة :

فتى من الريف

للأستاذ كامل محمود حبيب

قال صاحبي : جئت إلى القاهرة — أول ما جئت — لألتحق بالأزهر ، وكانت أمي قد نذرتني للقرآن ، وندرني أبي للعلم ؛ فأنا وحيدهما ، وأنا أمنيتهما على الله حين أحسا بالوحدة وقد خلت الدار من الحياة والحركة لأنها خلت من مرح الطفولة وعبثها ، وحين شعرا بأن تاريخهما على الأرض يوشك أن ينبتّ فما لهما ولد ، وحين عاشا زماناً يجدان لذع القحط والجفاف ، جئت إلى القاهرة وأنا فتى ريفي لا أعرف المدينة إلا معنى يقع على أوتار أذني موقع النغم الموسيقي العذب ، فينجذب له قلبي وتنبسط أساريري ، ثم رأيتها فإذا هي نور يخطف البصر ، وحركة يتنزّع لها القلب ، وثورة يحار لها الفؤاد ، وحياة دائمة مضطربة لا تنام ولا تخبو . وبدت عليّ سمات الحيرة والارتباك ، فإنه ليزعجني أن أسير في الشارع خيفة المدنيّ أن يمكر بي وله أفانين شيطانية تسخر من بساطة الريفي وسذاجته ، وخيفة السيارة أن تصدمني ومالي عهد بأساليب الحيطة والحذر ، وخشية الترام أن يحطمني وبه نهم دائم إلى لحم البشر يتأرّث ولا يشبع . ليتني كنت أستطيع أن أغدو وأروح في شوارع القاهرة أتهادى في مشيتي ، وأختال في جبتي ، وأفخر بعمامتي ، وتحت إبطي محفظة بها وريقات صفر لا أعي عما فيها حرفاً !

وكان أبي — رحمه الله — قروياً ، نشأ وتربى في الريف لا يبرحه إلا لماماً ، اتسم بسماته وانطبع بطابعه ، والريف ينفث في بنيه روح الكسل والتواكل ، فهو يقضي ساعات الشتاء يستمتع بالدفء والفراغ ، ويطوي عمر الصيف يستروح النسمات الهينة اللطيفة في ظل شجرة ، يجلس إلى رفاقه على المصطبة يتجاذبون أخبار القرية ، أو يتربعون على الثرى يلعبون السيجة ، أو يعقدون المجالس الصاخبة يشربون الشاي الأسود . ولا همّ له — من بعد — إلا أن ينظر — بين الفينة والفينة — إلى النبت وهو يسرب من بين الثرى لينمو رويداً رويداً ، وإلا أن يرقب البهائم وهي ترعى البرسيم في هدوء وعلى مهل . وسكن أبي إلى هذه الحياة وهي تنطوي على نسق واحد ، فأصبح لا يطيق صخب المدينة ولا يصبر على ضجتها . ولكنه ما يستطيع أن يقذف بي إلى القاهرة وحيداً ، وهو لا يطمئن إلى واحد من شباب القرية وطلابها ممن تزخر بهم المدينة لأن فيهم الغفلة والطيش ، ومرت الأيام وأبي لا يستقر على رأي .

ثم عهد بي أبي — بعد لأي — إلى الشيخ فهمي وهو شيخ كبير من شيوخ القرية ، نيف على الخمسين ولما يبرح طالباً في الأزهر ، يأتي إلى الجامع بين الحين والحين ، يجلس إلى أستاذه ساعة أو بعض ساعة ، ثم ينفلت إلى القرية في غير تمهل ولا تلبث . وهو حريص على أن يظل طالباً في الأزهر على رغم أنه لا يطمئن إلى حلقة الدرس ، ولا يُعنى بالقراءة والمطالعة ، ولا يأخذ نفسه بالمذاكرة والحفظ ، وهو منذ عين بمسكنه في القاهرة ، وهو حجرة ضيقة قذرة ، لا تتسنم هبّات الهواء النقي ، ولا تغتسل بأشعة الشمس الدافئة ، ولا ينفتح جفناها على نور ، ولا ينتفض من جنباتها الغبار ، مُطلّ من الأثاث إلا من حصيرة بالية لا تكاد تستر أرض الحجرة ، وإلا من مخدة ولحاف مشت عليهما أحداث الزمن فتركتهما مزقاً لا تماسك ، وإلا من صندوق ضم أشتاتاً من حاجات الطالب الغريب ، مبعثرة متناثرة في غير عناية ولا ترتيب : ففيه الخبز والتموين ، وفيه اللباس والملبوسة ، وفيه الكوز والإبريق ، وفيه ... وفيه الكتاب والحذاء ، وإلا من زير مهجور في ضاحية وإلى جانبه موقد ... وعاش هذا الشيخ بين القرية والقاهرة ، وانطوت السنون فما أفاد علماً ولا أصاب عقلا ولا بلغ غاية ، غير أنه عرف مسارب القاهرة ومنعطفاتها .

وتنازعتني عاطفتان متناقضتان نحو هذا الشيخ — رائدي — فأنا أطمئن إليه لأنه يكشف أمامي الطريق ، وينير لي متاهات القاهرة ومضلاتها ، وغداً يفتح أمامي باب الأزهر فأدخله لأول مرة وعلى شفتي ابتسامة وعلى هامتي كبرياء ، أدخله طفلا يستشعر الرجولة المبكرة والشباب المتوثب والرزانة المتكلفة ، وغداً يريني شيخي وهو في رأي عيني لا يبذل بشيء سوى لحيته البيضاء المرسلة التي تبعث في من حواليه المهابة والاحترام والخوف ، وأنا

— إلى ذلك — أمقته لأنني أحس فيه معنى من معاني جهلي ، وعلامة من علامات ضعفي ، فأنا لا أستطيع أن أتبين طريقي إلا حين يسير إلى جانبي . وأنا أحتقر عقله ، فكيف يبلغ هذه السن وهو ما يزال طالباً لم يظفر بالشهادة ولا بلغ مبلغ العلماء ! وأكره رجولته وهي قد تضاءلت في ناظري حين دخلت الحجرة التي يسكن فوجدتها على تفاهتها وقذارتها تضطرب في غير نظام ، وتموج بدويبات الأرض . وأبغضه حين يتكلف العطف ويتصنع الحنان ، وهو لا يحس شيئاً من هذه العاطفة ، فهو رجل قفر ممحل ، عزب لم يشهد معنى الأبوة ، ولا ذاق لمة الإثم !

وأراد والدي أن يقربني بأن أتخذ من حجرته مسكناً فأبيت ، وكيف أفعل وأنا قد رأيت « السام الأبرص » يدرج على جدرانها فسرت الرعدة في مفاصلي ، وإني لأخاف هذه الحشرة وأبغضها وأتفزع لرؤيتها . هذه الحجرة قد بعثت في الانقباض والضيق ، واستشعرت لدى بابها أن خواطري الجميلة قد انهارت كلها ، خواطري التي حاكها خيالي منذ أن غادرت القرية ، ومنذ أن هبطت القاهرة لأرى الحياة والحركة والنور . أين النور المتدفق وهو ينشر الشوارع والمنعطفات ويسيل من النافذ والأبواب ؟ أين ضجة الحياة وهي تصاعد صيحات تهتز لها أرجاء السماء ؟ أين النشاط والحركة ؟ أين المرح والسعادة ؟ لقد توارى كل أولئك خلف جدران هذه الحجرة . يا عجبا ! كيف يعيش الظلام إلى جانب النور ، ويطمئن الهدوء إلى جانب الضجة ، ويحيا الصمت إلى جانب الضجيج ، وتستقر الذلة إلى جانب الكبرياء ، ويهدأ الصغار إلى جانب السمو ، ويلتصق الشقاء إلى جانب السعادة ؟ وسيطرت على الدهشة فسلبتني من خواطري اللذيذة ، وتبين لي — لأول مرة — كيف يجتمع النقيضان في صعيد واحد !

وأصر والدي وأصررت أنا ، فما استطاع أن يثنيني عن عزمي ، ولا رضي بأن أبيت في المنزل ، وإن المنزل ليستنفد من مالنا في ليلة واحدة ما يكفينا أياماً ، وهو حريص على المال شحيح به ، ضنين علي أنا وهو مال أبي . ثم استمر النقاش بيني وبينه ، فقلت : « أبيت في حجرة الشيخ علي » ، ووافق هذا الرأي هوى في نفس والدي ، ولكن غاظه أن أفضل تلك على هذه ! والشيخ علي فتى من طلاب الأزهر قرى ، نحيف ضعيف يكاد يتهاوى من هزال ، ويوشك أن ينقض من وهن ، يخيل إلى من يراه — بادي الرأي — أنه بقية من إنسان أو أنه نفاية رجل . وإنه ليحس مكانه من الناس وقد تخلف عنهم ، فهو ما يبرح يتهادى في مشيته ، ويتأنق في حديثه ، ويشمخ بأنفه ، ويتطاول على رفاقه ، ولكنه لا يبلغ أن يكون رجلا !

وهو يعيش بين خمسة من ذوي قرابته في حجرة واحدة ، وهو رئيسهم ، لأنه بكبرهم سناً في السن ، ولأنه أعرفهم بالقاهرة ، ولأنه ألصقهم بالأساتذة ، يتقاسمون أجر المسكن على سواء ، يتعاونون على نفقات العيش ، ويتآزرون على حوادث الحياة ، يتكافئون على قسوة الغربة ، ويتظاهرون على مشقة الدرس

ودخلت حجرة الشيخ علي مثلما دخلت حجرة الشيخ فهمي من قبل ، فهما على نمط واحد ، لا تبد واحدة واحدة . ولكن نفسي اطمأنت إلى هذه حين لست فيها الإيناس بقدر ما نفرت عن تلك حين وجدت فيها الوحشة . أنست إلى هذه لأنني ألفيت هنا الصاحب والرفيق ، ولأنني وجدت مهرباً من الشيخ فهمي ، فما لي به حاجة من بعد ، وهو رجل ضيق العقل ، راكد الذهن ، شحيح النفس ، جامد الكف ؛ وهؤلاء رفاقي : نغدو معاً إلى الأزهر ، ونروح سوياً إلى الدار . وهدأت هواجسي ، فأنا الآن أستطيع أن أعبث مع صحابي كيف أشاء ، وأستطيع أن أمكر بالشيخ علي حين تسول لي شيطانيتي أن أفعل ، وهو الآن ولي أمري وقائدي !

وصرفني روح المرح واللعب والعبث — بادي ذي بدء — عن أن ألمس ما أعاني من شظف وشدة ، وعن أن أحس ما أقاسي من حرمان وضيق . والشيخ علي ممسك لئيم مخادع ، يراوغ الواحد منا عن قروشه ، ويداوره عن مصروفه ، وهو فظ لا يستشعر قلبه الحنان ولا الرحمة ، ولا يبض كفه بدرهم أتنسم به روح الحياة الناعمة في القاهرة ، فمكثت زماناً لا أتذوق إلا الخبز والجبن والمالح ، ثم جف حلقي وما لي طاقة بذلك !

وضاقت نفسي بما أجد فانطلقت إلى الشيخ في ثورة جامحة أسأله حقي ، فرتب لي مليما كل يوم لأشتري به متعة الحياة ولذة العيش !

وادخرت — بعد أيام — مليمات ، وإن نفسي لتهفو نحو